ضرورة التغيير ..
الحل الإسلامي هو البديل

الآن حصحص الحق ، ووضح الصبح لذى عينين .

لقد ثبت فشل الحلّين الدخيلين على بلادنا ، المستوردَين من عند غيرنا - وهما : الحل الليبرالى الديمقراطى ، والحل الاشتراكى الثورى - فى كل مجالات الحياة ، وكان إثم كل منهما أكبر من نفعه ، وفشله أضعاف نجاحه .

(أ) فشلٌ فى المجال الاقتصادى .

(ب) فشل فى مجال الحرية والطمأنينة للشعب .

(جـ) فشل فى المجال العسكرى .

(د) فشل فى المجال الروحى .

(هـ) فشل فى المجال الأخلاقى .

(و) فشل فى المجال العربى والإسلامى .

فماذا بعد ذلك كله ؟ وماذا تعنى إنجازات جزئية ومكاسب وقتية أمام الخسائر الكبرى والفشل العام ؟

وكل ما أخذته الأنظمة الثورية على مَن سبقوها من الحاكمين ، وقعت فيه وفيما هو شر منه ، وأضافت إلى آثام الأمس آثاماً أكبر وأخبث ، حتى أوشكت أن تصبح سيئات الماضين بجوارها حسنات .

ولا بأس أن أشير إلى مجالات الفشل المذكورة هنا ، مكتفياً بالتفصيل الذى

ذكرته فى الكتاب الأول « الحلول المستوردة » مركزاً على بعض النقاط التى تحتاج إلى توضيح أو تذكير وتوكيد .

● فشل فى المجال الاقتصادى :

لقد فشلت الليبرالية والاشتراكية كلتاهما فى إقامة حياة اقتصادية سليمة متكاملة ، تتحقق فيها زيادة الإنتاج وعدالة التوزيع ، حياة يتوافر فيها العمل الملائم لكل عاطل ، والأجر العادل لكل عامل ، والكفالة المعيشية لكل عاجز ، وتكافؤ الفرص لكل مواطن ، بحيث يجد كل المواطنين حاجاتهم الأساسية من الغذاء والكساء والمسكن والعلاج والتعليم دون عائق .

أجل .. فشلوا فى ذلك على رغم إكثار الأولين (الليبراليين) من القول بمحاربة « الأعداء الثلاثة » : الفقر والمرض والجهل !

وطنطنة الآخرين (الاشتراكيين) بمجتمع الكفاية والعدل ، المجتمع الذى ترفرف عليه الرفاهية !

ولكن لا هؤلاء ولا أولئك أطعموا الشعب من جوع ، أو أغنوه من فقر ، أو علّموه من جهل ، فلا زالت نسبة الأميين فى بلادنا أعلى من معظم بلاد العالَم .

هذا فى جانب العدل والتكافل الاجتماعى .

وفى الجانب الآخر .. جانب الكفاية وزيادة الإنتاج ، لم تزل بلادنا معتمدة أكبر الاعتماد على الاستيراد فى آلات الإنتاج ، ووسائل النقل ، ومعظم مصنوعات الحضارة ، ولم يستطع الليبراليون ولا الاشتراكيون إقامة تصنيع ثقيل - مدنى وحربى - يغنى الأمة عن الاستيراد ومدّ اليد إلى الأقوياء ، والتأرجح بين المعسكرات الدولية المتنافسة ، بُغية تأمين السلاح ، والدفاع عن الحمى .

حتى الزراعة التى كانت حرفة أجدادنا من آلاف السنين ، والتى اشتهرت بها بلادنا - حتى حاول الاستعماد فى وقت ما إفهامنا أننا لا نحسن غيرها

ولا نملك طاقات لشىء سواها - حتى هذه الزراعة لم نرق بها إلى المستوى اللازم لنا ، واللائق بنا ، كماً ونوعاً ، وما زلنا نستورد القمح من خارج أرضنا وإلا هلكنا جوعاً . وهكذا نعتمد على غيرنا فى جلب الطعام الذى به عيشنا ، والسلاح الذى نصون به حياتنا !!

لقد فشلت الليبرالية والاشتراكية فى الرقى بالمجتمع من التخلف إلى التقدم . لم تستطع هذه ولا تلك ، أن تنتقل بالمجتمع من الاعتماد على الغير إلى الاكتفاء بالذات ، ومن استيراد مصنوعات الحضارة إلى إنتاجها ، ومن شراء السلاح إلى صناعته ، ومن « رواية » العلم أو ترجمته إلى المشاركة فيه . هذا مع أن بعض العلم لا يسمح أهله بروايته أو ترجمته ، لأنه من الأسرار .

* *

● فشل فى مجال الحرية والطمأنينة للشعب :

وفشل الحلاّن كلاهما فى تحقيق الأمن والطمأنينة والحرية الحقيقية للشعب ، التى تتمثل فى حرية الفرد فى أن يفكر وينقد ويبدى رأيه فيما يراه من عوج وفساد ، وفى أن يندد - مع غيره - بالظلم والطغيان ، دون أن يخشى على نفسه من كلاب الصيد التى تختطف الأحرار من بيوتهم ، ومن بين أهليهم وأبنائهم فى سواد الليل ، فتلقى بهم إلى ظلمات السجون والمعتقلات ، بلا محاكمة أصلاً ، أو بعد محاكمة صورية ، يُرتّب فيها الحكم قبل المحاكمات !

لقد لقى الأحرار من المواطنين السجن والاعتقال ، والاضطهاد والتعذيب فى كلاَ العهدين : الديمقراطى والاشتراكى ، ولكن - والحق يقال - لا نسبة بين ما حدث فى العهد الأول والعهد الآخر ، لا فى الكم ولا فى الكيف . حتى إن الذين جرّبوا الاضطهاد فى العهدين ، يعتبرون أن المنافى والمعتقلات التى عانوها فى العهد السابق - وطالما شكوا من ظلمها وظلامها - كانت جنة فيحاء بالنسبة إلى معتقلات العهد الثانى وسجونه ومنافيه .

* *

● فشل فى المجال العسكرى :

لقد فشل الحلاَّن - الليبرالى والاشتراكى - فى تحقيق نصر عسكرى فى قضية العرب والمسلمين الأولى : قضية فلسطين ، أولى القِبْلتَين ، وثالث الحرمين .. فشلت الديمقراطية فشلاً تجسَّد فى هزيمة الجيوش العربية فى سنة ١٩٤٨ ، وقيام دولة « إسرائيل » - المزعومة كما كنا نسميها لعدة سنوات - وتشريد مليون مواطن من شعب فلسطين ، وتحويلهم إلى لاجئين .

ثم بعد تسعة عشر عاماً ، وبعد تحوّل عدد غير هيِّن من الدول العربية إلى الاشتراكية الثورية . وبعد الإعداد والتجهيز للحرب ، وشراء السلاح بمئات الملايين من عَرَق الشعب ، واستقدام الخبراء ، وإطلاق الحناجر بالجعجعة والوعيد ، وبعد أن أصبح العسكريون هم القادة السياسيين أيضاً . فشلت الاشتراكية اليسارية فشلاً أنكى وأقسى من فشل سابقتها . فقد جاء بعد آمال عراض ، وأحلام عذاب ، وبعد تصريحات نارية ، وتهديدات عنترية [١] - ومعذرة لعنترة ! - وقد تجسم هذا الفشل فى هزيمة يونية (حزيران) سنة ١٩٦٧ ، ثم ضمت إلى هذا الفشل العسكرى كبيرتين من كبائر الخطايا :

أولاهما : أنها جعلت أكبر همها ، « إزالة آثار العدوان » وإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه فى ٤ يونية ١٩٦٧ ، كأنما إسرائيل كلها ليست قائمة على أساس الاغتصاب والعدوان . وكأنما العدوان الجديد أضفى الشرعية على مكاسب العدوان القديم .

والثانية : بتبجحها العجيب ، حين اعتبرت ضياع الأرض ، وهوان العِرض ، وانهيار الجيوش .. كل ذلك لا يُعَد هزيمة يفرح بها العدو ، ويحزن لها الصديق ،

---

(١) جرينا على ما يقول كثير من الكتَّاب ، وإن كنا نرى الأصوب ألا يقال « عنترية » بل « فرزدقية » إشارة إلى قول جرير :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربع !!

أما عنتر فكان يقول ويفعل .

ما دامت الأنظمة الثورية باقية فى دست الحكم ! وفى الحديث : « إنَّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت » !

ولولا نفحات من رياح الجنة هبَّت فى العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ هـ بفضل الصائمين القائمين من أبناء هذه الأمة وجنودها ، لبقى ذل الهزيمة المخزية وصمة عار فى جبين أمتنا إلى ما شاء الله !

* *

● فشل فى المجال الأخلاقى :

وفشل الحلاَّن - قبل ذلك كله - فى الحفاظ على أخلاق الأمة وفضائلها الأصيلة ، وقيمها الرفيعة . لم يستطيعا تخليص الأمة من الرذائل الموروثة من عهود الانحطاط ، ولا مطاردة الرذائل الدخيلة ، التى جلبها وراءه الغزو الاستعمارى .

ومن هنا انتشر الفساد ، وطغت الشهوات ، وطمّ سيل الميوعة والتهتك ، وفقد النساء - أو أكثرهن - الحياء ، وفقد الرجال - أو أكثرهم - الغيرة ، وأصبح الغيور المحافظ على دينه وعِرضه وأسرته « رجعياً » متخلفاً يفكر بعقل قرون مضت ، وأصبح « الديوث » الذى لا يبالى مَن دخل على أهله تقدمياً متحرراً يستحق أن يعيش فى القرن العشرين .

ومن جانب آخر .. شاع العبث والمجون والاستهتار بالمصالح العامة ، والاستخفاف بحقوق الآخرين ، وحصر التفكير فى المنفعة الذاتية المادية العاجلة ، وانتشرت الرشوة والمحسوبية انتشار النار فى الهشيم ، وأصبحت الحكمة الشائعة على ألسنة الناس هى قول الشاعر :

إذا كنتَ فى حاجة مرسلاً وأنت بها كلف مغـــــرم

فأرسِل حكيماً ولا توصه وذاك الحكيم هو الدرهم !

وبجوار ذلك كله سادت روح السلبية فى المواطنين وعدم المبالاة ، وترك

الأمور تجرى فى أعنتها ، غير عابئين بنتائجها أو مصايرها . وهذا شر ما تصاب به أمة ..

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلاً !

* *

● فشل فى المجال الروحى :

وكذلك فشل الحلاّن - كلاهما - أن يمسكا على الأمة إيمانها الذي تعتز به ، وتعض عليه بالنواجذ ، وتعتبره أساس وجودها وبقائها : إيمانها باللّه ، وإيمانها برسالاته ، وإيمانها بحسابه وجزائه فى الآخرة . فاهتزت القيَم الدينية فى أنفس كثير من الناس ، ووجد تيار الشك والإلحاد له أعواناً وصحفاً وأجهزة تنشر الضلال والفسوق والعصيان .

وكيف يستطيع الحلاّن الدخيلان المستوردان أن يحفظا على الأمة إيمانها ، فضلاً عن تثبيته وتركيزه ومدّ شعاعه فى كل مجالات الحياة ؟

كيف وانتصار هذين الحلّين أنفسهما تحدٍّ لهذا الإيمان ، ومعارضة له ؟

إن هذين الحلّين إنما جاءا من الغرب الذى لم يعرف الإيمان باللّه معرفة صحيحة قَط [1] ، ولهذا كانت الحضارة الغربية ذات فرعين : فرع ينكر وجود اللّه إنكاراً مباشراً ، ولا يرى أن اللّه خلق الإنسان ، بل الإنسان هو الذى خلق اللّه ، كما زعم بعض الفلاسفة الماديين ، وتبنى ذلك « كارل ماركس » وأقام على أساسه فلسفته المادية الجدلية ، ونظريته الاشتراكية العلمية .

والفرع الآخر .. لا ينكر اللّه فى صراحة وقطع ، ولكنه لا يعترف له بسلطان على عباده ، يأمر وينهى ، ويحكم ويشرِّع ، وبهذا لا يدع فى الحياة ولا فى

---

(١) لأن المسيحية التى وصلت إلى الغرب لم تكن مسيحية المسيح الأصيلة ، بل مسيحية الملك قسطنطين ومجمع نيقية وغيره ، ممن ألّهوا المسيح وخرجوا بديانته عن التوحيد ، ملّة إبراهيم ، وتجاوزا به مكانه من العبودية للّه .

المجتمع مجالاً للّه سبحانه . وهذا ما عبَّر عنه « ليوبولد فايس » - أو « محمد أسد » - بقوله : « إن المدنية الغربية لا تجحد « اللّه » ألبتة ، ولكنها لا ترى مجالاً ولا فائدة « للّه » فى نظامها الفكرى الحالى » [1] .

* *

● فشل فى المجال العربى والإسلامى :

وفشل الحل الليبرالى الديمقراطى ، والحل الاشتراكى الثورى ، كذلك فى تحقيق الوحدة والأخوة والتضامن الحقيقى بين أبناء البلد الواحد ، ولم نر إلا التطاحن الحزبى ، أو التشاحن الطبقى ، أو الصراع الفكرى ، أو التناحر السياسى ، أو التباغض الدينى ، أو التحاسد الشخصى ، أو كل ذلك وغير ذلك من ألوان التنافر والتجافى والصراع ، التى مزَّقت الوطن الواحد كل ممزق ، وجعلت بعض فئاته أعداءً لبعض ، ووسعت الفجوة بين الحكام والشعوب ، فأولئك فى واد ، وهؤلاء فى واد آخر .

وإذا كان هذا على مستوى البلد الواحد ، فكيف إذا نظرنا إلى العرب جميعاً باعتبارهم شعباً واحداً ، جمعت بين أبنائه وحدة الدين واللغة والثقافة والتاريخ ، فضلاً عن وحدة الأرض والمصالح ، والآلام والآمال ؟

وكيف إذا نظرنا إلى المسلمين جميعاً بوصفهم أمة واحدة ، جعلها اللّه وحدها هى الأمة الوَسط ، واعتبرها فى كتابه خير أمة أُخْرِجت للناس ، نهى أمة واحدة فى عقائدها وتصوراتها . واحدة فى شعائرها وعباداتها . واحدة فى مُثُلها وأخلاقها . واحدة فى آدابها وتقاليدها . واحدة فى مشاعرها وآمالها . واحدة فى تشريعها وتوجيهها . وأخيراً واحدة فى قيادتها السياسية الدينية ، الروحية الزمنية ، المتمثلة فى الخلافة الإسلامية الواجبة ؟

لقد فشل الحلاَّن فى ربط الأمة الإسلامية بعضها ببعض ، وتقريباً من الوحدة

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٣٩ - الطبعة السادسة .

obeikandl.com

الإسلامية المنشودة ، نتيجة حتمية لغلبة النزعات الوطنية أولاً . والقومية آخراً ، بحيث طغت هذه النزعات على الأخوة الإسلامية الجامعة . ثم نتيجة لاختلاف مذاهب السياسة والفكر التى يتبعها كل بلد ، من التبعية للغرب أو الشرق .

ولا غرو أن وجدنا القضايا الإسلامية المختلفة يتولاها كل بلد باعتبارها شيئاً يخصه وحده ، ولا يعنى سائر المسلمين ، وينظر إليها بقية المسلمين فى أنحاء الأرض ، وكأنه حدث فى بلد أجنبى ، أو فى بلاد واق الواق ، لا يهمُّهم ولا يشغلهم ، وهذا كله ثمرة لازمة للثقافة القومية العلمانية .

لقد ترتب على ذلك أن وجدنا بلداً مثل تركيا - أعنى حكوماته المتعاقبة منذ نصف قرن - تعترف بإسرائيل ، وتقيم معها علاقات ديبلوماسية واقتصادية وثقافية ، ضاربة عرض الحائط بمشاعر العرب ، وأخوة العرب ، وحقوق العرب ، وذلك لأن الذى يربط تركيا بالعرب هو الإسلام ، ولكن تركيا القومية و « الطورانية » العلمانية الحديثة - تركيا كمال أتاتورك - قطعت كل ما بينها وبين الإسلام ، فقطعت - بالتالى - ما بينها وبين العرب ، حتى حروف الكتابة العربية !!

وكان للعرب موقف مشابه من موقف تركيا ، وذلك فى النزاع الذى قام حول « قبرص » بين القبارصة الأتراك المسلمين ، والقبارصة اليونانيين المسيحيين ، فكان موقف العرب - إجمالاً - فى صف الأسقف « مكاريوس » وأتباعه ، إلى حدّ أن بعضهم زوّده بالسلاح ، ليقتل به المسلمين الذين حُوصِروا وقُتِلوا بالجوع والظمأ ، فضلاً عن الحديد والنار .

وقد زرتُ تركيا فى صيف سنة ١٩٦٧ ، فسألنى الكثيرون بعد محاضرة ألقيتها هناك : كيف وقفتم - معشر العرب - مع « مكاريوس » ضدّ إخوانكم المسلمين من الترك ؟

فقلت لهم : وكيف وقفتم - معشر الأتراك - مع إسرائيل فاعترفتم بها رسمياً ضدّ إخوانكم المسلمين من العرب ؟

قالوا : إنما هذا تصرف حكومات علمانية لا نرضى عن سياستها ، ولا نؤمن باتجاهها .

قلت : وهذا نفس الوضع عندنا . فأغلبية الشعوب العربية تؤمن بأخوة المسلمين وتضامنهم - على الأقل - ولكن حكومات قومية علمانية فرضتها أوضاع قاهرة ، هى التى وقفت هذا الموقف !

وفى مشكلة كشمير الإسلامية وقف العرب منها إما متفرجين - محايدين فيما زعموا - وإما ممالئين ظاهراً أو باطناً لسياسة الهند العدوانية ، لأنها الصديقة الاشتراكية ! وهذا برغم موقف باكستان المشرِّف من قضايا العرب باستمرار .

وفى الحرب التى قامت بين الهند وباكستان سنة ١٩٦٥ كان هذا هو موقف العرب أيضاً ، حتى قرأنا يومها أعجب بيان يصدره شيخ الأزهر - شيخ الإسلام فى مصر - بيان يدعو البلدين المتقاتلين إلى وقف القتال ، لا إلى مساندة البلد المسلم المعتدَى عليه من الوثنية الحاقدة المتربصة . أو على الأقل السكوت والرضا بأضعف الإيمان .

ولهذا لم نعجب أن احتُلّ المسجد الأقصى ، ثم أُحْرِق فيما بعد ، ولم يتزلزل العالم الإسلامى لهذا الحادث الجلل ، ولم تتحول الثورات العاطفية التى حدثت حينذاك إلى عمل إيجابى . وذلك لتقطع الروابط الإسلامية ، وانطفاء جذوة الروح الإيمانية ، التى لم يفلح فى إشعالها قرارات مؤتمر علماء المسلمين فى مجمع بحوث الأزهر بمصر ، ولا نداءات مؤتمر رابطة العالَم الإسلامى بمكة . لأن المسلمين نائمون ، والنائم لا يسمع النداء . فلا بدّ من دعوة إيقاظ ، وحركة إحياء ، قبل إصدار النداءات والقرارات .

وما أقسى أن يعبِّر ماركسى شامت عن نتائج هذه النداءات بأنها أصداء بئر خاوية !

مَن المسئول ؟ إنه الأنظمة التى تحكم هذه البلاد ، والتيارات التى تسودها وتحركها . فقد أماتت فيها روح الإسلام ، وأحيت معانى الجاهلية !

* * *

● مآخذ « الميثاق » على الحكم الوطنى المصرى بعد ثورة ١٩١٩ :

لقد عاب « الميثاق » المصرى على الاتجاه الليبرالى - الذى ساد مصر بعد ثورة ١٩١٩ - أموراً ثلاثة كانت هى الأسباب الواضحة التى أدت إلى فشل « الثورة الوطنية » فى مصر فى تحقيق أهداف الشعب .

الأمر الأول - إهمال التغيير الاجتماعى :

إغفال القيادات الثورية والزعامات السياسية مطالب « التغيير الاجتماعى » نظراً لأن طبيعة « المرحلة التاريخية » جعلت من طبقة ملاّك الأرض أساساً للأحزاب السياسية التى تصدت لقيادة الثورة .

ولقد كانت الدعوة إلى تمصير بعض أوجه النشاط المالى هى قصارى الجهد فى ذلك الوقت ، فى حين أن الدعوة إلى إعادة توزيع الثروة الوطنية أصلاً وأساساً كانت هى المطلب الحيوى الذى يتحتم البدء فيه من غير تأخر أو إبطاء .

الأمر الثانى - الغفلة عن رابطة العروبة :

إن القيادات الثورية فى ذلك الوقت لم تستطع أن تمدّ بصرها عبر سيناء ، وعجزت عن تحديد « الشخصية المصرية » ولم تستطع أن تستشف من خلال التاريخ أنه ليس هناك صدام على الإطلاق بين الوطنية المصرية وبين القومية العربية .

« لقد فشلت هذه القيادات أن تتعلم من التاريخ ، وفشلت أيضاً فى أن تتعلم من عدوها الذى تحاربه ، والذى كان يعامل الأمة العربية كلها - على اختلاف شعوبها - طبقاً لمخطط واحد .

« ومن هنا فإن قيادات الثورة لم تنتبه إلى خطورة وعد بلفور الذى أنشأ إسرائيل ، لتكون فاصلاً يمزق امتداد الأرض العربية ، وقاعدة لتهديدها .

« وبهذا الفشل ، فإن النضال العربى - فى ساعة من أخطر ساعات الأزمة - حُرِم من الطاقة الثورية المصرية ، وتمكنت القُوَى الاستعمارية من أن تتعامل مع أمة عربية ممزقة الأوصال ، مفتتة الجهد » .

الأمر الثالث - الانخداع بالاستقلال الإسمى :

إن القيادات الثورية لم تستطع أن تلائم بين أساليب نضالها وبين الأساليب التى واجه الاستعمار بها ثورات الشعوب فى ذلك الوقت .

« إن الاستعمار اكتشف أن القوة العسكرية تزيد ثورات الشعوب اشتعالاً . ومن ثَمَّ انتقل من السيف إلى الخديعة ، وقدم تنازلات شكلية لم تلبث القيادات الثورية أن خلطت بينها وبين الجوهر الحقيقى ، وكان منطق الأوضاع الطبقية يزين لها هذا الخلط .

« إن الاستعمار فى هذه الفترة أعطى من الاستقلال اسمه ، وسلب مضمونه ، ومنح من الحرية شعارها ، واغتصب حقيقتها . وهكذا انتهت الثورة بإعلان استقلال لا مضمون له ، وبحرية جريحة تحت حراب الاحتلال .

« وزادت المضاعفات خطورة بسبب « الحكم الذاتى » الذى منحه الاستعمار ، والذى أوقع الوطن - باسم الدستور - فى محنة الخلاف على الغنائم دون نصر .

« وكانت النتيجة أن أصبح الصراع الحزبى فى مصر ملهاة تشغل الناس ، وتحرق الطاقة الثورية فى هباء لا نتيجة له » [1] .

* *

(١) الميثاق : الباب الثالث ص ٢٤ - ٢٧

● ثورة ١٩٥٢ لم تستفد من أخطاء ثورة ١٩١٩ :

هذه الأمور الثلاثة التى أخذها الميثاق المصرى الناصرى على ثورة سنة ١٩١٩ ، وبعبارة أخرى : على الليبرالية الديمقراطية المصرية ، وأدّت إلى فشلها فى تحقيق آمال الشعب ومطالبه .

وهى مآخذ حقيقية وعيوب صادقة لا مجال لردّها وإنكارها .

ولكن هل استفادت ثورة ١٩٥٢ من ثورة ١٩١٩ ؟

وبعبارة أخرى : هل استفادت الاشتراكية الثورية المصرية - واليسار العربى بصفة عامة - من دروس الليبرالية العلمانية الوطنية وأخطائها ؟

إن الذى سجّله التاريخ عليها أنها لم تعتبر بمصير الثورة التى ورثتها ، والاتجاه الذى خلفته . ولم تنتفع بما أنكرته عليها من مآخذ ، وما خلفته من آثار ونتائج كان يؤمل أن تفتح أعينها على حقائق هامة ، أهمها : أن تكتشف نفسها ، وتعرف موقعها ، ولكنها لم تفعل .

لهذا فشلت الثورة الاشتراكية العربية ، كما فشلت الثورة الليبرالية الوطنية . ومن أبرز أسباب هذا الفشل ما نبينه فيما يلى :

● حقيقة التغيير الاجتماعى وكيف يتم :

١ - إن القيادات الثورية العربية - فى مصر خاصة وفى البلاد العربية عامة - لم تفهم حقيقة « التغيير الاجتماعى » الذى رفعوا شعاره ، والذى تتوق شعوب المنطقة إليه ، والذى أسهم « التيار الإسلامى » بدور رئيسى فى توعية الشعب بضرورته ، والالتفاف حول المطالبة به .

لقد تخيّلت هذه القيادات أن مجرد « إحلال طبقة محل طبقة » ، وأن مجرد إصدار قرارات بجملة من التأميمات والمصادرات ، يغيِّر « الواقع الاجتماعى » السىء إلى واقع حسن .

لقد توهمت أن المشروعات المرتجلة ، والقرارات المستعجلة - والتى تعمل

أجهزة الإعلام الضخمة على تمجيدها وإحاطتها بهالة كبيرة من الدعاية لها - كفيلة بتغيير الأوضاع .

لقد أغفلت هذه القيادات الثورية العنصر الأخلاقى والروحى فى التغيير - إغفالاً يكاد يكون تاماً - مع أن كل ثورة اجتماعية لا تسبقها وتصاحبها ثورة روحية ، فكرية ، نفسية ، هى - بلا ريب - ثورة مآلها إلى الفشل والخيبة .

لقد بيَّن القرآن الكريم هذه السُنَّة الاجتماعية ، ووضعها فى صيغة قانون إلهى ثابت لا يتخلف ولا يحابى ولا يظلم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (١) ..

ومن المقرر الذى لا خلاف عليه أن تغيير الأنفس ليس بالأمر الهين . إنه ليس تغيير مَلْبس أو زِىّ بآخر . إن معناه تغيير الإنسان ذاته من حال إلى حال . تغيير وجهته وأفكاره ومشاعره وأهدافه وطرائقه . وهذا هو « التغيير الثورى » الحقيقى . لأنه تغيير ينفذ إلى الروح والجوهر ، ولا يقف عند الغلاف والمظهر . مصداقاً لما قاله معلِّم الإنسانية : « ألا إنَّ فى الجسد مُضْغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » (٢) .

هذا التغيير النفسى لا يتم إلا بوسيلة واحدة هى الإيمان (٣) ، الإيمان الذى صنع من قبائل العرب المتفرقة الممزقة من قبل خير أمة أُخْرِجت للناس ، وبعثهم فى أنحاء الأرض ينشرون الحق ، ويدعون إلى الخير ، ويُخرجون الناس من عبادة الخلق إلى عبادة اللّه وحده ، ومن ضِيق العيش إلى سعة الحياة ، ومن جور الأديان والظلام إلى عدل الإسلام .

الإيمان الذى غيَّر سَحَرة فرعون من أبناء مصر ، حين خالطت بشاشته قلوبهم ، فانقلبوا من أذناب مهرجين مأجورين يطلبون المال والزلفى بين يدى فرعون ،

---

(١) الرعد : ١١ (٢) متفق عليه .

(٣) راجع فصل « الإيمان والإصلاح » من كتابنا « الإيمان والحياة » .

إلى أحرار مؤمنين أقوياء ، يتحدون بإيمانهم جبروت فرعون ، وإرهاب زبانيته ، غير عابئين بوعيده وتهديده بالتقتيل والتصليب .

﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ، فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (١) ..

إن هؤلاء الأبطال نموذج لما يمكن أن يصنعه الإيمان بشعب كالشعب المصرى ، حين يدع سحر الفراعنة ، ويعرف الطريق إلى الله .

وليت هؤلاء الثوريين اقتصروا فقط على إغفال العنصر الروحى والأخلاقى ، بل طاردوه وحاربوا دعاته ، ونكلوا بهم شر تنكيل ، وشجعوا الجور والعبث ، وأطلقوا العنان للميوعة والتحلل ، واختلاط الشبان والشابات فى المعسكرات والرحلات وما شابهها .

كما أغفل هؤلاء عنصراً آخر يكمل العنصر السابق ، وإن شئت فقُلْ : هو شرط له ، ذلك هو عنصر « الحرية السياسية » فتوافر الحرية لأبناء المجتمع هو « المناخ » الضرورى ، والتربة اللازمة ، لكى يُخرج « التغيير الاجتماعى » نباته بإذن ربه طيباً مباركاً ، ولا يخرج خبيثاً نكداً .

ولكن القيادات الثورة أهملت الحرية ، بل أهدرت قيمتها ، بل عادتها وقاومتها بكل سبيل ، وحرمت أفضل العناصر الوطنية من الحرية : حرية التعبير والنقد والخطابة والكتابة والتجمع بحُجّة كاذبة مضللة ، هى « حماية الثورة من أعداء الثورة » أو من « الثورة المضادة » . ولا أدرى ما الذى جعل الثورة الأولى حقاً ، والثورة الأخرى المضادة لها باطلاً ؟ أهو لمجرد السبق الزمنى كانت الأولى مشروعة ، والثانية عدواناً ؟ أم لأن هذه فى السُلطة فكل ما عارضها يفقد الصفة الشرعية ، ولا يستحق البقاء ؟!

وكان أعجب شعار رفعته القيادات الثورية أنه : « لا حرية لأعداء الحرية » فكل لسان حرّ يجب أن يُخرس ، وكل قلم حرّ يجب أن يُكسر ، وكل فكر حرّ يجب أن يُخنق ، لأن أصحاب هذه الألسنة والأقلام والأفكار « أعداء الحرية »

---

(١) طه : ٧٢

حرية السلطات الحاكمة فى أن تفعل بالشعب ما تشاء ، وتعبث بمصيره ومقدراته وحرماته كيف تشاء !

ثم إن التغيير الاجتماعى ما لم يستند إلى عقيدة - أيديولوچية أساسية - يؤمن بها الشعب - ويعمل بموجبها ، ويضحى فى سبيلها ، ويخضع لمقرراتها ، ويلتزم بحدودها ، يكون تغييراً غير هادف ، همه أن يزيل شيئاً بشىء ، أو يحل جديداً محل قديم ، أو يكون تغييراً هدفه الهدم لا البناء ، والمحو لا الإثبات .

ومن المؤسف أن القيادات الثورية أغفلت العقيدة أو « الأيديولوچية » الوحيدة التى لا تؤمن شعوبنا إلا بها ، ولا تتجمع إلا حول رايتها ، وهى « الإسلام » . وظلت فترة فى شبه فراغ فى تأرجح وتردد ، ثم حاولت أن تملأ هذا الفراغ عن طريق « التسول الفكرى » نتيجة لجهلها بتراثها وحضارتها ، وفقدانها الثقة بنفسها ودينها وتاريخها . ورغبتها فى إرضاء السادة أعداء الاتجاه إلى الإسلام . والشحاذة والتسوّل أيسر طريق للكسالى من العاطلين الذين يريدون الغِنَى بغير جهد ، واكتناز الثروة بغير عمل .

وقد عثر هؤلاء - فى أثناء تسكعهم فى شوارع الفكر الغربى ومنتدياته - على « الاشتراكية العلمية » فطاروا بها فرحاً ، وعادوا بها مبشِّرين ومنذرين ، بعد أن طعّموها بخليط من الأفكار الليبرالية الغربية ، والأفكار الوطنية والقومية ، مع شئ من الأفكار الدينية ، المشوشة فى بعض الأحيان .

وكانت نتيجة ذلك هو الاضطراب والتخبط ، أو البَذر فى الهواء ، والبناء على كثيب من الرمل ، لا ثبات له ولا قرار ، هذا إن أمكن أن يقوم البناء .

كان نتيجة ذلك هو السير فى غير الاتجاه الصحيح . والسير فى غير الاتجاه الصحيح مهما اجتاز صاحبه من مفاوز ، وقطع من مسافات ، وبذل من جهد وعَرَق ، لا يُقرِّب من الهدف المنشود ، بل يُبعد عنه ، هذا إن افترضنا وجود هدف محدّد .

ومن ثَمَّ فشلت القيادات الثورية العربية فى تحقيق « التغيير الاجتماعى » الذى نادوا به ، لأنهم لم يفهموا حقيقته ، ولم يعرفوا شروطه ومناخه ، ولم

يسلكوا له سبيله . ولم يدركوا أساسه الذى يجب أن يقوم عليه البناء ، فتخبطوا وتعثروا وتناقضوا .

وانتهى تخبطهم إلى مطالبة بعض اليساريين العرب بتغيير كل شىء : القِيَم والأخلاق ، والمفاهيم والعقائد ، وبهذا انتهى مفهوم « التغيير » إلى « الهدم المطلق » . إلى ريح عقيم ، ما تَذَر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم .

* *

• الصلة العميقة الأصيلة بين العروبة والإسلام :

وإذا كان « الميثاق » المصرى قد عاب على القيادات الحاكمة بعد ثورة ١٩١٩ عجزها عن تحديد « الشخصية المصرية » وعن فهم الصلة التاريخية بين الوطنية المصرية والقومية العربية . فلم تتعلم من التاريخ ، ولا من عدوّها الذى يعامل الأمة العربية كلها طبقاً لمخطط واحد . فنحن نعيب على القيادات العربية الحاكمة بعد ثورة ١٩٥٢ - وما تبعها من ثورات - أنها عجزت عجزاً بيِّناً عن تحديد « الشخصية العربية » ولم تستطع أن تستشف من خلال التاريخ أيضاً الصلة العميقة بين العروبة والإسلام ، وبين الشعب العربى والأمة الإسلامية .

إن ارتباط الشخصية العربية بالإسلام ارتباط عضوى لا ريب فيه . فالإسلام هو صانع تاريخ العرب وأمجادهم وثقافتهم ومُثُلهم وحضارتهم ، ومخلّد لغتهم ، ورافع ذكرهم فى العالمين عامة ، وفى الشعوب الإسلامية خاصة .

إن الذى جعل من العرب أمة رائدة ، ووضع فى أيديهم القيادة ، وجمعهم من شتات العصبية ، وحررهم من جهالة الأمية ، وضلال الوثنية ، وقذارة الجاهلية ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور . هو الإسلام الذى بعث اللّه به رسوله الخاتم ، وأنزل به كتابه الخالد : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) ..

---

(١) الجمعة : ٢

وهم فى خلال أربعة عشر قرناً لم يحرزوا تقدماً ، أو يحققوا نصراً إلا بالإسلام . كما أن ارتباط الشعب العربى بالأمة الإسلامية الكبرى هو ارتباط قائم دائم لا يجادل فيه إلا مكابر ، لأنه يقوم على أساس من وحدة العقيدة ، ووحدة الشريعة ، ووحدة الأهداف ، ووحدة الثقافة ، ووحدة التاريخ ، ووحدة المصالح ، وهذه الوحدات كلها هى التى صنعت وحدة الأفكار والمشاعر والآلام والآمال ، وولّدت الشعور القوى لدى العرب والمسلمين كافة ، بأنهم « أمة واحدة » أمة القرآن ، أمة محمد ﷺ .

وارتباط العرب بإخوانهم المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها هو ارتباط الجزء بالكل . وليس هو أى جزء من كل ، فإن مكان العرب فى الجسم الإسلامى مكان الرأس أو القلب .

فقد شاء اللّه أن ينزل كتابه العظيم بلسان عربى مبين ، وأن يبعث رسوله الكريم من أمة العرب ، وأن يجعل بيته العتيق فى أرض العرب ، وأن يجعل حَمَلة رسالة الإسلام الأوّلين إلى العالمين من رجال العرب . وهذا كله بوّأ العرب مكان الزعامة فى المسلمين ، وجعلهم ينظرون إلى العرب باعتبارهم أبناء الصحابة ، وعصبة الإسلام ، وأولى الناس بوراثته ، وحمل دعوته إلى العالم كله .

بَيْدَ أن القيادات الثورية العربية جهلت هذا كله ، أو تجاهلته ، فنادت بـ « قومية عربية » مغلقة ، ولم تستطع أن تمد بصرها عبر الخليج العربى لتتصل بأكثر من ستمائة مليون مسلم - عرَّب الإسلام عقولهم وعواطفهم - يمثلون خُمس العالَم ، ويملكون من القُوَى المادية والبَشرية ما يجعل منهم « كتلة ثالثة » تستطيع أن تغيِّر ميزان القُوَى العالمية ، كما يملكون من « القيَم » الثقافية والحضارية ما يجعل منهم رسل الهداية للدنيا ، وسفينة الإنقاذ للبَشرية الموشكة على الغرق .

* *

● مقومات القوة لدى العالَم الإسلامى :

وهذه بعض مقومات القوة التى يملكها العالَم الإسلامى ، أنقلها من دراسة للبحاثة الباكستانى الأستاذ تودرس نظير أحمد خان :

أولاً - الوضع الاستراتيچى للعالَم الإسلامى :

إن البلاد الإسلامية تشكل العمود الفقرى للكرة الأرضية ، فهى تمتد فعلاً كسلسلة طويلة متصلة الحلقات فى سائر المنطقة الواقعة بين أندونيسيا ومراكش ، وتشرف على مواقع استراتيچية هامة ، وهى فى وضعها هذا تشغل مركزاً بالغ الأهمية فى الشئون الدولية .

ثانياً - وضع المسلمون من الناحية العددية عامل رئيسى له أهميته الخاصة :

هناك نحو ستمائة وخمسين مليوناً [١] من المسلمين منتشرون حالياً فى كافة بقاع الأرض . دانيها وقاصيها ، وإنك لتجد مسلماً واحداً بين كل خمسة أشخاص من البَشر . وإذا ما أُحسن تنظيم هذه القوة العددية ، وأمكن تعبئتها تعبئة ملائمة فإنها تشكل ضمانة فعلية لمستقبل أوضاع المسلمين فى كافة الشئون العالمية .

ثالثاً - ما يشغل المسلمون من مركز هام فى دنيا السياسة أيضاً :

هناك حوالى ست وثلاثين دولة إسلامية [٢] من أصل المائة والثلاث عشرة دولة التى تشكل منظمة الأمم المتحدة ، فإذا ما اتخذت هذه الدول مظهراً مشتركاً ، ووحَّدت صفوفها أمكنها أن تثبت وجودها كقوة فعّالة فى الشئون العالَمية .

وإنه لمن المؤسف حقاً أنه بالرغم من هذه النسبة الكبيرة من التمثيل التى يملكها

---

(١) قد أصبحوا الآن نحو ألف مليون .

(٢) الدول الإسلامية أكثر من ذلك الآن بعد أن استقل عدد منها مؤخراً .

المسلمون فى أهم ميدان دولى ، فإنهم لا يزالون فى عِداد الأتباع لا فى عِداد القادة .

رابعاً - إن الوضع الاقتصادى للعالَم الإسلامى غير مدروس دراسة صحيحة من قِبَلنا ، ويجرى غالباً بموجب نظريات سطحية ، وآراء مغلوطة ، يشير بها علينا مَنْ تتعارض مصالحهم مع مصالحنا .

إن العالَم الإسلامى غنى بمصادر الثروة الطبيعية ، ويمكنه أن يزيد فى غناه . إننا ننتج ٦٦٪ من مجموع ما ينتجه العالَم من الزيت الخام ، إن حقول الزيت فى الكويت هى أغنى حقول العالَم . إننا ننتج ٧٠٪ مما ينتجه العالَم من المطاط الطبيعى و ٤٠٪ مما ينتجه العالَم من « الجوت » الطبيعى ، و٥٦٪ من زيت النخيل ، و٦٧٪ من التوابل والبهارات المختلفة ، و٣٠٪ من الفلفل الأسود ، و٨٠٪ من القشرة « الفلّين » ، و٩٠٪ من خشب الكينا . ويوجد فى بعض أقطارنا موارد لا ينضب معينها من الغاز الطبيعى ، كما يوجد لدينا احتياطى ضخم من المعادن كالحديد والنحاس والتنك والبوكسيت - المادتان الأخيرتان موجودتان بكثرة خاصة فى الملايو - والمنجنيز والفوسفات ، ومعدن الكروم والجبس ، والحجر الجيرى وحجر الحرارة ، ومجموعة متنوعة من مواد أخرى مفيدة ، وحتى اليورانيوم الذى أصبح ثميناً للغاية فى هذه الأيام ، نظراً لاستعماله فى إنتاج الطاقة النووية ، فإنه موجود أيضاً فى أقطار إسلامية عديدة من إفريقيا .

وتعتبر البلاد الإسلامية أيضاً من أغنى المناطق فى العالَم فى الزراعة وتربية المواشى والسائمة .

خامساً - العنصر الإنسانى : يجب ألا يُغفل بأن عدداً كبيراً من أقطارنا قد حارب خلال العقدين الأخيرين من الزمن ، من أجل التحرر من الحكم الأجنبى ، وتمكن من أن ينتصر ، وإن بطولات الجزائر الحربية من أجل التحرر ستبقى إلى الأبد فى صفحات التاريخ .

إننا الآن شعوب ناهضة مصممة على نفض غبار الماضى ، واستعادة ما كان لها من أمجاد .

ويلاحظ البعض أن كثيراً من الأقطار الإسلامية لا تزال متخلفة .. ولكن يجب ألا يتجاهل النقاط الحقيقية الصارخة فى أن المستغلين الأجانب - بالإضافة إلى جهلنا - هم المسئولون عن وضعنا الاقتصادى الحاضر » أ هـ [1] .

*

سادساً - التراث الروحى والحضارى :

وهذا عنصر هام لم يتحدث عنه الباحث الباكستانى ، وهو ميراثنا المعنوى العظيم ، ميراثنا الروحى والثقافى والحضارى . ففى هذه المنطقة من شرقنا العربى والإسلامى اتصلت السماء بالأرض ، وتنزلت أعظم كتب اللّه على أعظم أنبيائه ، وقامت الديانات السماوية الكبرى - اليهودية والمسيحية والإسلام - التى بعث اللّه بها أُولى العزم من الرسل : موسى وعيسى ومحمداً عليهم الصلاة والسلام .

وفى هذه المنطقة قامت الحضارات القديمة العظيمة التى حققها التاريخ للمصريين والفينقيين والآشوريين والبابليين والفُرس والهنود وغيرهم .

وسلالات هذه الشعوب القديمة لا تزال قادرة على أن تؤدى دورها الحضارى مهتدية بهَدى القرآن وروح الإسلام .

وكما يُعاب علىَ دعاة « الوطنيات الإقليمية » فى بلاد العرب حصرهم شعوبهم وبلادهم فى « دائرة ضيقة » فى مقابلة « العروبة » الرحبة التى تشمل الأوطان والشعوب العربية جمعاء . يُعاب على دعاة « القومية العربية » حصرهم أنفسهم فى دائرة مغلقة محدودة ، فى مقابلة « الدائرة الإسلامية »

---

(١) من كتاب : « دراسات حول رابطة للبلاد الإسلامية » ص ٣٦ ، ٣٧ - إصدار الأمانة العامة للمركز الإسلامى . كراتشى - باكستان .

المفتوحة الواسعة . فخسروا بذلك ولاء وقوة مئات الملايين بسبب من العصبية الجاهلية .

وإذا كان ردّ « ساطع الحصرى » على دعاة التقوقع المصرى الذين كان شعارهم « مصر أولاً » بتخطئة هذه النعرة الإقليمية الضيقة ، ورفع شعار « العروبة أولاً » [1] فنحن نخطىء « الحصرى » بنفس منطقه ، ونرفع الشعار الطبيعى والتاريخى والمنطقى لهذه الأمة وهو « الإسلام أولاً » .

* *

وهكذا تبيّن أن الذى عابته القيادات الثورية الجديدة على القيادات القديمة وقعت فيه وفيما هو شرّ منه ، فلم تتعلم من التاريخ ، ولم تتعلم من عدوّها الذى يعامل المسلمين جميعاً - على اختلاف شعوبهم - طبقاً لمخطط واحد . ولا يفرّق بين عربى وغير عربى ، لأن روح الحروب الصليبية ما زالت تسكن بين جنبيه .

والذى وقعت فيه الزعامات العربية وقعت فيه أيضاً دعاة القومية والعلمانية فى بلاد المسلمين الأخرى ، وبخاصة تركيا التى تجسدت فيها القومية العلمانية اللادينية بأجلى صورها ، فعزلت نفسها عن العرب عزلاً كاملاً لعدة عقود من السنين .

وكان من جرّاء ذلك أن خاض العرب أخطر أدوار كفاحهم مع اليهودية العالمية المتمثلة فى إسرائيل ، ومع الصليبية الغربية المتمثلة فى مساندى إسرائيل ، دون أن يستفيدوا استفادة تذكر من الطاقة الإسلامية الضخمة من المحيط إلى المحيط ، أو من أندونيسيا إلى الدار البيضاء .

ولو راجع هؤلاء التاريخ الذى يعرفونه ولا يجهلونه ، لوجدوا أن الرجل الذى أنقذ بيت المقدس من الصليبيين بعد أن بقى فى أيديهم ٩٠ عاماً ، لم يكن

---

(١) ألّف ساطع الحصرى - الذى كان القوميون يلقبونه بـ « فليسوف القومية العربية » - كتاباً بالعنوان المذكور : « العروبة أولاً » .

عربى الدم والعنصر ، وإنما كان كردياً ، عرَّبه الإسلام ، وذلك هو صلاح الدين ، الذى تم جهاد بطلين إسلاميين قبله لم يكونا من جنس العرب أيضاً هما : الشهيد نور الدين محمود ، وأبوه عماد الدين زنكى .

إن اليهودية العالمية التى خططت لأحلامها منذ زمن بعيد ، تعلم مقدار ما تملك الأمة الإسلامية لو تجمعت قواها ، واتحدت شعوبها ، واستفادت من تكامل اقتصادها ، فضربت ضربتها فى تدمير الخلافة الإسلامية التى كانت آخر مظهر لوحدة الأمة الإسلامية - على ما كان بها من نقائص وعيوب - ليعيش المسلمون بعدها أوزاعاً ، ويسهل بعد ذلك ضرب كل شعب على حدة بمعزل من الآخرين .

لقد أدركت قيادة ثورة ١٩٥٢ شيئاً عن قوة الوحدة الإسلامية ، أو على الأقل - التضامن الإسلامى ، فيما كتبته فى « فلسفة الثورة » عام ١٩٥٣ عن أهمية « الدائرة الإسلامية » . بعد « الدائرة العربية » والذى حدا بها إلى إنشاء « المؤتمر الإسلامى » ثم تنوسى ذلك كله ، بل أهمل ، وبل حورب ، وأصبح المؤتمر الإسلامى مجرد مبنى ولافتة ، وذلك حين غلبت التيارات الوافدة على الأحاسيس الطبيعية الأصيلة التى ظهرت بوادرها أولاً فى « فلسفة الثورة » . وأصبح كل نصيب الأمة الإسلامية من « الميثاق » كلمة عابرة فى ختام « الباب العاشر » الذى يتحدث عن « السياسة الخارجية » حيث يقول : « وإن كان شعبنا يؤمن بوحدة عربية ، فهو يؤمن بجامعة إفريقية ، ويؤمن بتضامن آسيوى إفريقى ، ويؤمن بتجمع من أجل السلام ، يضم جهود الذين ترتبط مصالحهم به ، ويؤمن برباط روحى وثيق يشده إلى العالم الإسلامى ، ويؤمن بانتمائه إلى الأمم المتحدة » ..

هذا هو نصيب الأمة الإسلامية من الميثاق وواضعه : مجرد رباط روحى ! - على سبيل البركة ! - لم يبلغ مبلغ الجامعة الإفريقية ، ولا التضامن الآسيوى

الإفريقى ! أى أن باكستان ليست فى منزلة أثيوبيا ، وأندونيسيا ليست فى مرتبة روديسيا !!

* *

● حقيقة الاستقلال ومضمونه :

والأمر الثالث الذى عابه « الميثاق » الوطنى المصرى على الزعماء الليبراليين فى مصر بعد ثورة ١٩١٩ ، هو عدم إدراكهم لحقيقة الحرية ، وحقيقة الاستقلال ، وانخداعهم بما أعطاهم الاستعمار من أشكال للاستقلال لا مضمون لها .

يقول الميثاق : « إن الاستعمار فى هذه الفترة أعطى من الاستقلال اسمه ، وسلب مضمونه ، ومنح من الحرية شعارها ، واغتصب حقيقتها . وهكذا انتهت الثورة بإعلان استقلال لا مضمون له ، وبحرية تحت حراب الاحتلال » .

ونقول : « إن زعماء الاشتراكية الثورية هنا ليسوا أحسن حالاً من زعماء الليبرالية الديمقراطية ، وما كان الفريقان إلا كحمارى العبادى الذى قيل له : أى حماريك شر ؟ فقال : هذا ثم هذا !

فقد فشل كلاهما فى تحقيق استقلال ذاتى حقيقى للأمة ، يردّها إلى حضارتها الأصيلة المتوازنة ، ويعيد إليها شخصيتها المستقلة المتميزة ، ويجعلها رأساً فى الحياة ، لا ذيلاً لشرق أو غرب .

فرغم جلاء الجيوش الأجنبية عن البلاد ، وإعلان الاستقلال ، والاحتفال به كل عام ، وانتقال السُلطة من أيدى الأجانب إلى أيدى الوطنيين ، لم يتحقق من الاستقلال إلا اسمه ومظهره ، لا لبه وروحه .

ما زالت بلادنا عالة على غيرها فى التسلح ، وفى الصناعة والتكنولوچيا . كل ما صنعناه أننا نستورد منتجات الحضارة ، ولكن لا نصنعها ، واستيراد المنتجات الحضارية لا يصنع حضارة كما قال الأستاذ مالك بن نبى .

وأدهى من ذلك أننا لم نزل تابعين للغرب فى اتجاهاته ومذاهبه وأنظمته ،

فيما هو أهم من الصناعة والتكنولوچيا : فى السياسة ، وفى الفكر . فنحن نتخذ الغرب قبْلة لنا فى نظم حكمنا واقتصادنا ، وفى مناهج فكرنا وثقافتنا ، سواء أكان هذا الغرب رأسمالياً أم شيوعياً ، فكلاهما غرب .

فأين الاستقلال - إذن - إذا لم يكن فى مجال الصناعة والعلم ، ولا فى مجال السياسة والحكم ، ولا فى مجال الفكر ؟

وشرّ من هذه التبيعة هو قابليتها ، والرضا بها ، أو على الأقل السكوت عليها ، كأنها قدر محتوم .

إن أقرب النتائج لهذه التبعية الفكرية هى الفراغ الروحى ، والاضطراب العقائدى ، والقلق النفسى ، والحيرة العقلية التى تعانيها الأجيال الناشئة فى بلاد المسلمين . فالشباب فى هذه البلاد يعانى أزمة فكرية ونفسية عاتية ، نتيجة لما يلمسه من التناقض بين ضميره وواقعه ، بين عقيدته الموروثة وأوضاع مجتمعه السائدة .

يقول الأستاذ الدكتور محمد البهى : « إن المجتمعات الإسلامية لم تزل موزعة على نظامى الحكم - يعنى الليبرالى ، والاشتراكى - على أساس من الفكر الغربى وحده . وبذلك لم تتخل عن التعبية للأجنبى ، رغم وثائق الاستقلال ، وممارسة بعض مظاهره ، من الانتقال من نوع إلى آخر فى نظام حكمه وأيديولوچيته .

وليس من هذه المجتمعات - حتى الآن - ما راجع الإسلام فى صلاحيته لسياسة المجتمع ، وضبط سلوك الأفراد فيه ، مراجعة جدية بناءة ، حتى ذلك المجتمع فى آسيا الذى أعلن منذ ربع قرن تقريباً - بعد جهاد مرير طال أمده - قيامه على أساس من الفكر الإسلامى وحده » !

يعنى مجتمع باكستان التى نودى بقيامها على أساس الإسلام .

إلى أن يقول الدكتور : « لا بديل عن الإسلام فى الحفاظ على استقلال هذه

المجتمعات . وأى بديل الآن يظن أنه كاف فى سياسة الحكم والتوجيه فيها ، هو - على سبيل القطع والتأكيد - بداية لتبعية تنتهى حتماً إلى ذوبان لشخصيات هذه المجتمعات ، وإلى ضياع مقوماتها ..

إن المجتمعات الإسلامية المعاصرة مهددة بخطر الضياع فى استقلالها ، وفى إيمانها ، وفى اقتصادها .

وإن الشباب المسلم هو فى حيرة الآن ، ومهدد بالانتقال من هذه الحيرة إلى تبعية فكرية وسياسية ، لا خلاص له منها ، والمسئولون عن هذه المجتمعات يعيشون فى تصورات هى أقرب إلى الأحلام ، التى يبعثها « اللاشعور » فى الإنسان ! اللّهم إليك الأمر وحدك » [١] .

* *

● محاولة واهمة لوضع نظرية شاملة للثورية العربية :

وقد حاول بعض الكتّاب من أساتذة العلوم السياسية فى مصر أن يصنع فى الستينات فلسفة أو نظرية ترتكز عليها الحركة الثورية الاشتراكية المصرية .

وانتهى الدكتور محمد طه بدوى إلى شىء سماه « الحتمية العلمية » كما فى كتابه « فلسفتنا السياسية الثورية » الذى خصص فيه باباً « لسند الثورة فى فلسفة السياسة ، لما لوجهة النظر الفلسفية فى هذا السند من أثر عميق فى تشكيل المقوّمات الأيديولوچية لمجتمع ما بعد الثورة » .

وفى الباب الثانى خاض دراسة تحليلية ، تستهدف - كما قال - « نظماً شاملاً لنظرية كاملة ، ضابطة لحياتنا السياسية » .

---

(١) عن مقال « الشباب المسلم » للدكتور محمد البهى بمجلة « الوعى الإسلامى » السنة السابعة - العدد ٧٧ - جمادى الأولى سنة ١٣٩١ هـ (يونية سنة ١٩٧١ م) .

وفى « تمهيده » للباب الأول قال : « إن فكرة الفلسفة الغربية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر عن « العقد السياسى » بوصفها السند العقلى لثورة الطليعة النابهة للطبقة الثالثة « البرجوازية النامية » على الاستبداد السياسى والامتيازات الطبقية حينذاك . كانت تعمل فى إطار فلسفة سياسية كاملة ، تؤيد تطلعات تلك الطليعة التى طال ازدراؤها - رغم ثرائها المطرد بسبب انفرادها بالاشتغال بالتجارة - وذلك من جانب « طبقة النبلاء » الممتازة .

« فلقد ارتبطت فكرة العقد السياسى - كسند عقلى للثورة - بفكرة « اجتماع سياسى » يقوم على هوى تلك الطليعة البرجوازية ، على أساس أن السيادة فيه للأمة ، أى لا لطبقة « النبلاء » القديمة أو « للملك » . وهو اجتماع يقوم من أجل صيانة الحقوق الطبيعية الخالدة : المِلْكية والحرية ، فى ظل المساواة أمام القانون ، بوصفه أداة التعبير عن « الإرادة العامة .. » فكان أن تشكلت - تبعاً لذلك - أيديولوچية المجتمع الثورى البرجوازى الغربى ، التى أرست أصولها الثورة الفرنسية الكبرى لسنة ١٧٨٩ ، وهى أيديولوچية قوامها : تقديس المِلْكية الفردية ، بوصفها دعامة الحريات الفردية جميعاً .. ومساواة أمام القانون ..

« وكذلك الحال بالنسبة لأيديولوچية المجتمعات الماركسية فلقد تأثرت فى تكوينها الراهن بفكرة « الحتمية التاريخية » لثورة البروليتاريا ، بوصفها جزءاً من فلسفة ماركس الشاملة عن « المادية التاريخية » و « الصراع الطبقى » ..

« وهكذا بالنسبة لفلسفتنا الثورية [1] . فسندنا العقلى لثورة ٢٣ يوليو ، مرتبط تماماً بظروفنا الاجتماعية الخاصة بنا وبتجاربنا الوطنية . ومن هذه الظروف والتجارب نبع فكرنا المذهبى الثورى ، ثم راح يتبلور حتى قدّم للميثاق

---

(١) انظر ص ١٣ - ١٤ من كتاب « فلسفتنا السياسية الثورية » : فكرنا المذهبى والأيديولوچيات العالمية . وانظر ص ٤٨ - ٥٣ منه أيضاً .

الوطنى - بوصفه الأداة المصوِّرة لأيديولوچية مجتمعنا الثورى العربى الجديد - نظريتنا السياسية الشاملة .

« إن سندنا العقلى للثورة العربية الشاملة ينحصر فى حتميتها ، باعتبار أنها الطريق الوحيد إلى تحقيق أهداف النضال العربى ، إنه سند عقلى ، لأنه يتمثل فى حكم عقلى ينبع من التجربة . وسندنا العقلى هذا يشكل جزءاً من فلسفة عامة لثورتنا . إنه يشكل جزءاً من تلك « الفلسفة الوضعية » التى تقوم على التجربة لنخلص منها إلى الحلول العلمية الضابطة لمجتمع ما بعد الثورة ، وهى حلول « حتمية » .

« إنها حتمية الثورة » استناداً إلى التجربة .. وهى « حتمية الحل الاشتراكى » استناداً إلى التجربة كذلك .

« ومن ثَمّ فإن سندنا العقلى لثورتنا العربية الكبرى يتمثل فى « الحتمية العلمية للثورة » .

ويقسِّم الدكتور « الديمقراطية السياسية » فى العالَم إلى أنواع ثلاثة :

١ - الديمقراطية السياسة فى مفهومها الغربى ، وهى تعنى ديمقراطية « التصادم السياسى » تبعاً لطبيعة التناقض الاجتماعى هناك .

٢ - الديمقراطية الماركسية ، وهى تعنى ديمقراطية « الاجتماع السياسى » تبعاً لصورة المجتمع اللاطبقى .

٣ - أما ديمقراطية الثورة المصرية - كما سجّلها الميثاق وقانون الاتحاد الاشتراكى - فيسميها « ديمقراطية التحالُف السياسى » تبعاً لتحالف القُوَى الاجتماعية ، بديلاً للتصادم الطبقى المؤدى إلى التصادم السياسى .

هذا ما قاله الأستاذ الدكتور بدوى فى محاولة جاهدة لـ « تنظير » سياسة الثورية الاشتراكية المصرية .

وليسمح لنا السيد الدكتور أن نقول له :

إنها محاولة متعسفة ، تريد أن تجعل من هذا الخليط من الأفكار - التى أبرز سماتها الاستيراد والتلفيق - فلسفة مستقلة ، وأيديولوچية وطنية متكاملة .

ويذكرنى هذا بما تفعله بعض مصانع السيارات العربية التى تستورد أجزاء السيارة من أوروبا ، ثم تقوم بتركيبها محلياً ، وتطبع عليها « ماركة وطنية » ، ثم تصدِّق نفسها أنها صنعت سيارة ! كما تطلب من الناس أن يصدّقوها فى هذه الدعوى !..

ومعلوم للدكتور بدوى ولمن هو دونه من الدارسين ، أن « الاشتراكية الثورية » ليست بضاعة مصرية ولا عربية ولا إسلامية ، وإنما هى بضاعة أجنبية لها صُنّاعها ومُطوِّروها ، وبعبارة أخرى : لها فلاسفتها ونظرياتها ومصدر إلهامها .

وإطلاق اسم « الحتمية العلمية » على هذا الاتجاه المستورَد لا يعطيه صفة « الأصالة » ولا يخرجه عن « التبعية » للأيديولوچيات العالمية ، التى يدّعى كل منها التحلى برداء « العلمية » الزاهى ، سواء فى ذلك الليبرالية الديمقراطية التى اتخذت « العقلانية » و « العلمانية » طابعاً لها فى مقابلة الاتجاه الدينى والمثالى ، والاشتراكية الماركسية التى سمت مذهبها « الاشتراكية العلمية » .

وما أطلق عليه الدكتور اسم « ديمقراطية التحالف السياسى » لا يخرج فى جوهره عن ديمقراطية « الإجماع السياسى » عند الماركسيين ، وتجربة « التنظيم الواحد » - الاتحاد الاشتراكى - لا تختلف فى نتيجتها عن تجربة « الحزب الطليعى » الواحد ، كما نبهنا على ذلك من قبل .

ولعل مما يؤكد هذا ما اشتهرت به نتائج الاستفتاءات العامة فى بلادنا ، وما أصبح مثلاً مضروباً فى الناس ، وهو « الإجماع » بنسبة ٩٩٫٨٩٪ !

إن العيب الرئيسى فى هذا التحليل هو محاولة « تبرير » الواقع ، وتكلف

سند عقلى له ، والاستماتة فى إعطائه صفة « أيديولوچية » مستقلة عن « الأيديولوچيات » العالمية .

وإن « العلم » ليهبط بقيمته الذاتية حين يرضى لنفسه أن يكون أداة فى خدمة سياسة معيَّنة . إن الواجب أن تتبع السياسة العلم ، لا أن يتبع العلم السياسة . ومثل العلم فى ذلك « الدين » .

والحق إننا لا نعرف فى عالم اليوم إلا أيديولوچيات ثلاثاً :

(أ) الأيديولوچية الليبرالية الفردية ، التى يمثلها الغرب أو ما يسمى « العالم الحر » على اختلاف مدارسها وتطبيقاتها .

(ب) والأيديولوچية الاشتراكية الجَماعية ، التى يمثلها الماركسيون على اختلاف مدارسها وتطبيقاتها كذلك .

(جـ) والأيديولوچية الإنسانية المتوازنة ، وهى التى يدعو إليها الإسلام . فهذه الأيديولوچية ليست فردية ، ولا جَماعية ، ولا شرقية ، ولا غربية ، ولكنها إسلامية قرآنية وكفى .

وما عدا هذه الأيديولوچيات الرئيسية المتمايزة ، فهو تلفيق من هنا وهناك وهنالك .

بقيت كلمة ، أود أن أقولها هنا تعقيباً على تحليل الدكتور بدوى ..

لنفرض أن الاشتراكية الثورية العربية تخضع فعلاً لمنطق التجربة ، وحتمية العلم كما قال . إذن يكون الواجب عليها الآن أن تغيّر اتجاهها فوراً ، بعد أن أثبتت « التجارب المرة » فشل الاتجاه الثورى الاشتراكى فى كل بلادنا العربية ، وفى كل الحقول المادية والمعنوية كما أثبتنا ذلك من قبل مؤيداً بالوثائق والأدلة . وكما أكدت ذلك من بعد ، حرب العاشر من رمضان .

وليس فشل الثورية العربية فى تحقيق أهدافها ذاتها ، وأهداف الأمة فى تلك المرحلة من تاريخها ، شيئاً طارئاً ، نتيجة لضغوط خارجية قاهرة ، أو لظروف

محلية أو شخصية عارضة ، يمكن أن تزول ، بل الفشل كامن فى طبيعة الاشتراكية الثورية ، كما بيّناه فى جزء « الحلول المستوردة » .

* *

● ضرورة التغيير والبحث عن بديل :

إن منطق العلم هنا يؤكد ضرورة التغيير ، ويوجب البحث عن بديل ، تُرى ماذا يكون البديل ؟

إن الحل البديل المطلوب لا يُتصور إلا أن يكون أحد حلين اثنين : الحل الشيوعى الأحمر الصريح ، أو الحل الإسلامى المتكامل الصحيح .

* أمتنا ترفض الحل الشيوعى شكلاً وموضوعاً :

أما الحل الشيوعى فهو مرفوض شكلاً وموضوعاً ، أصولاً وفروعاً . ولكن لماذا نرفض الشيوعية ؟

أما إجمالاً فلأننا مسلمون ، والشيوعية تكفر بالإسلام ، وكتابه ، ونبيه ، بل تكفر بالأديان جميعاً .

وأما تفصيلاً ، فلأن الشيوعية - أولاً - ضد عقيدتنا ، لأنها مذهب مادى ، ينكر كل ما وراء الحس وما بعد الطبيعة ، فلا يؤمن بإله ولا ملائكة ولا وحى ولا رسالة ، ولا جنة ولا نار ، ونحن قوم نعتبر الإيمان أساس وجودنا ، ومحور حياتنا .

ولأنها - ثانياً - ضد شريعتنا ، فهى تنكر التّملُّك الفردى بأى طريق كان ، كما تنكر كل ما يترتب عليه من حقوق وأنظمة ، كنظام الزكاة والنفقات ونظام المواريث وغيرها . كما تنكر نظام الإسلام فى الزواج والطلاق والأحوال الشخصية ، ونظامه فى المبادلات والمعاملات المدنية ، ونظامه فى الجزاء والعقوبات الجنائية ، ونظامه فى الإدارة والسياسة الشرعية .. إلخ . ونحن لا ندع شرع اللّه لنظام بَشرى كائناً ما كان .

ولأنها - ثالثاً - ضد قِيَمنا الأخلاقية والاجتماعية ، فهى لا تؤمن بقِيَم ثابتة ، فكل شىء فى فلسفتها قابل للتغير ، بل واجب التغير ، فما كان فضيلة بالأمس قد يكون رذيلة اليوم ، وما كان حراماً اليوم ، قد يكون حلالاً زلالاً غداً ، أو بعد غد ! ونحن نؤمن بثبات القِيَم وأصول الفضائل والرذائل ، فما أحلّ اللّه فهو حلال إلى يوم القيامة ، وما حرّمه فهو حرام إلى يوم القيامة .

ولأنها - رابعاً - ضد طبيعتنا ، فنحن أمة وَسَط ، أمة العدل والحب ، وهى مذهب متطرف ، يجنح إلى الغلو فى كل شىء . نحن نؤمن بالإخاء ، وهى تؤمن بحتمية الصراع الطبقى . نحن ندعو إلى الرفق وهى تدعو إلى العنف والدم . شعارنا : « كونوا عباد اللّه إخواناً » وشعارها : « يا عمال العالَم اتحدوا » أى ضد الطبقات الأخرى ، وما أعظم الفرق بين الشعارين !

ولأنها - خامساً - ضد كرامتنا وحريتنا ، وبعبارة أخرى : ضد إنسانيتنا . فما قيمة الإنسان إذا فقد الكرامة والحرية والشعور بالذاتية ؟ وأنّى له ذلك فى ظل فلسفة تلغى قيمة الفرد ، وتقتل حوافزه ، فإنما القيمة كلها للمجتمع ، أى للدولة ، أو للحزب الحاكم ، أو للجنة العيا للحزب ، أو للديكتاتور !

ولأنها - سادساً - ضد سيادتنا القومية ، لأنها استعمار جديد ، بل هى أعلى مراتب الاستعمار . فالاستعمار التقليدى يمكن التخلص منه بالكفاح والمقاومة ، كما حدث لشعوب وبلاد شتّى . أما الاستعمار الشيوعى ، فلم نره دخل بلداً واستطاع أهلها التحرر منه . وعند المجر وتشيكوسلوفاكيا والجمهوريات الإسلامية فى الاتحاد السوفييتى - الخبر اليقين ! ونحن نمقت ونحارب الاستعمار كله : أحمره وأسوده . غربيه وشرقيه ، قديمه وجديده .

ولأنها - سابعاً - بنت اليهودية العالمية ، هى التى صنعتها ، وهى التى روّجتها ، فمؤسسو الشيوعية من اليهود : « ماركس » من أسرة يهودية ، و« لينين » يهودى ، و« تروتسكى » يهودى .. وغيره وغيره . وعدد كبير من زعماء الشيوعية فى العالم يهود ، حتى فى العالم العربى ، نجد مؤسسى الأحزاب الشيوعية فيه يهوداً معروفين .

ولأنها - ثامناً - ضد وحدتنا العربية والإسلامية ، فالشيوعية لا تقبل وحدة عربية ، فضلاً عن وحدة إسلامية ، لأنها تعمل وتنشط فى الأجزاء المبعثرة ، ما لا تعمل فى الكتل المتحدة . ولهذا وقفت ضد الوحدة الثنائية بين مصر وسوريا ، فكيف بوحدة عربية جامعة ، وكيف بوحدة إسلامية شاملة ؟

إن الشيوعية لا تحيا ولا تنمو إلا على الصراع والانقسام . فهى تقسِّم البلد الواحد إلى طبقات تتعادى وتتصارع ، وتقسِّم أيضاً الأمة الواحدة إلى شعوب وبلاد تتخاصم وتتنازع ، ما بين يمين ويسار ، ويمين اليمين ، ويسار اليسار !

ولأنها - تاسعاً - ضد استقلالنا الذاتى ، فهى تفرض علينا التبعية الفكرية والسياسية ، وتوجب علينا أن ندور فى فلك غيرنا ، وأن نستمد التوجيه من سوانا ، ونحن قوم اختارهم الله ليكونوا ﴿ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (١) .. وأساتذة للبَشرية ، فلا نرضى لأنفسنا بمقام التلمذة ، وجعلنا رؤوساً ، فلا نقبل أن نعيش أذيالاً . إننا لا نرضى أن يعلو كتاب على القرآن ، ولا زعيم على محمد عليه الصلاة والسلام ، ولا مذهب أو فلسفة على رسالة الإسلام ، بعد أن أكمل الله لنا ديننا وأتم به نعمته علينا : ﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ (٢) ..

*

* الحل الإسلامى هو البديل :

الحل الشيوعى الأحمر - إذن - مرفوض من أساسه ، فلم يبق إلا الحل الآخر ، فهو الحل البديل ، وهو الحل الحتمى ، وهو الحل الوحيد ، ذلكم هو الحل الإسلامى .

تُرى ماذا يعنى الحل الإسلامى ؟ وما معالمه وملامحه ، وما خطوطه العريضة ؟ هذا ما يجيب عنه الفصل التالى ..

* * *

---

(١) البقرة : ١٤٣ (٢) المائدة : ٣